في حدائق العرب

﴿ الوفاء والحب ﴾

جلس معاوية بنُ ابي سفيان يوماً في مجلس له بدمشق وكان الموضع مفتحَ الجوانب الاربعة ، وكان اليوم شديد الحرّ لا نسيم فيه . فاذا برجل يمشي وهو يتلظى من حرّ التراب ، ويحجل في مشيته حافياً . فتأمله معاوية وقال لجلسائه : هل خلق الله سبحانه وتعالى اشقى ممن يحتاج الى الحركة في هذا الوقت ؟ — فقال بعضهم : لعله يقصد امير المؤمنين — فقال والله لئن كان قاصدي لاجل شيء ، لاعطينّهُ واستجلبَ الاجر به ، او مظلوماً لانصرنّه . يا غلام ، قِفْ بالباب ، فان طلبني هذا الاعرابي فلا تمنعهُ من الدخول عليَّ . فخرج فوافاه . فقال : ما تريد ؟ — قال : امير المؤمنين — قال: ادخل . فدخل فسلم . فقال لهُ معاوية : ممن الرجل ؟ — قال من تميم . قال : فما الذي جاء بك في هذا الوقت ؟ — قال : جئتك مشتكياً ، وبك مستجيراً . — قال : ممن ؟ — قال : مروان بن الحكم عاملك . — قال : اذكر لي قصتك وأبِنْ عن أمرك . فقال :

« يا امير المؤمنين ، كانت لي زوجة وكنت لها محباً وبها كلفاً ، وكنت بها قرير العين طيب النفس . وكانت لي جذعة من الإبل استعين بها على قوام حالي وكفاية اودي . فاصابتنا سنة اذهبت الخفّ والحافر . فبقيتُ لا املك شيئاً . فلما قلّ ما بيدي وذهب مالي وفسد حالي ، بقيتُ مهاناً ثقيلاً على الذي يألفني ، وأبعدني من كان يشتهي قربي ، وازورّ من لا

يُرغَب في زيارته . فلما علم ابوها ما بي من سوء الحال وشرّ المآل ، اخذها مني وجحدني وطردني واغلظ عليّ . فأتيت الى عاملك مروان بن الحكم راجياً لنصرتي . فلما احضر اباها وسألهُ عن حالي ، قال : ما اعرفه قط . — فقلت : اصلح الله الامير ، ان رأى ان يحضرها ويسألها عن قول ابيها . ففعل ، وبعث خلفها . فلما حضرت بين يديه ، وقعت منه موقع الاعجاب ، فصار لي خصماً ، وعليّ منكراً ، وأظهر لي الغضب وبعث بي الى السجن ، فبقيت كانما خررت من السماء او استهوت بي الريح في مكان سحيق ، ثم قال لابيها : هل لك ان تزوجنيها على الف دينار وعشرة آلاف درهم ، وأنا ضامن اخلاصها من هذا الاعرابي ؟ فرغب ابوها في البذل ، وأجابه الى ذلك . فلما كان من الغد بعث اليّ وأحضرني ، ونظر اليّ كالاسد الغضبان وقال : طلّق سعاد . — فقلت : لا . فسلط عليّ جماعة من غلمانه ، فاخذوني يعذبونني بانواع العذاب ، فلم أجد بداً من طلاقها ، ففعلت فاعادني الى السجن ومكثتُ فيهِ الى ان انقضت عدتها فتزوجها وأطلقني . وقد اتيتك راجياً ، وبك مستجيراً ، واليك ملتجئاً ، وأنشد يقول :

في القلب مني غرامُ للنار فيهِ استعارُ
والجسم مرمي بسهم فيهِ الطبيب يحارُ
وفي فؤادي جمرٌ والجمرُ فيهِ شرارُ
والعين تهطل دمعاً فدمعها مدرارُ
فليس الا بربي وبالامير انتصارُ

ثم اضطرب واصطكت لهاته ، وصار مغشياً عليه وأخذ يتلوى كالحية

فلما سمع معاوية كلامه وانشاده ، قال : تعدى ابن الحكم في حدود الدين، وظلمَ واجترأ على حرم المسلمين . ثم دعا بدواة وقرطاس ، وكتب الى مروان بن الحكم كتاباً يقول فيه : انهُ قد بلغني انك تعديت على رعيتك في حدود الدين ، وينبغي لمن كان والياً ان يكفّ بصره عن شهواته ، ويزجر نفسه عن لذاته . ثم كتب كلاماً طويلاً منه :

ولّيتَ أمراً عظيماً لستَ تُدركهُ　　فاستغفرِ الله من فعل امرئٍ زانِ
إن انتَ خالفتني فيما كتبتُ به　　لأجعلنك لحماً بين عقبانِ
طلّقْ سعاداً وعجّلها مجهّزةً　　مع الكميت ومع نصرِ بنِ ذبيانِ

ثم طوى الكتاب وطبعه ، واستدعى بالكميت ونصر بن ذبيان ، وكان يستنهضهما في المهمات لامانتهما ، فاخذا الكتاب وسارا حتى قدما المدينة ، فدخلا على مروان بن الحكم وسلما عليه وسلما الكتاب اليه . فصار يقرأ ويبكي . ثم قام الى سعاد واعلمها بالامر . ولم يسعه مخالفة معاوية ، فطلقها بحضر الكميت ونصر بن ذبيان ، وجهزها وصحبتهما سعاد . ثم كتب الى معاوية كتاباً يقول فيه هذه الابيات :

لا تعجلنْ امير المؤمنين فقد　　اوفى بنذرك في سرّ واعلانِ
وما اتيتُ حراماً حين اعجبني　　فكيف أُدعى باسم الخائن الزاني
اعذرْ فانك لو أبصرتها لجرَتْ　　فيكَ الاماني على تمثال انسانِ
فسوف تأتيك شمسٌ ليس يدركها　　عند الخليفة من أنسٍ ومن جانِ

ثم ختم الكتاب ودفعه الى الرسولين ، فسارا حتى وصلا الى معاوية وسلما اليه الكتاب فقرأه وقال : « لقد احسن في الطاعة واطنب في ذكر الجارية »

ثم أمر باحضارها ، فلما رآها رأى صورة حسناء لم يرَ احسن منها ، ولا مثلها في الظرف والجمال والقدّ والاعتدال . فخاطبها فوجدها فصيحة اللسان حسنة البيان فقال : « عليٌّ بالاعرابي » فجيء به وهو في غاية من تغير الحال . فقال : يا اعرابي ، هل لك عنها من سلوة ، واعوّضك عنها ثلاث جوارٍ نهد ابكار ، كأنهنّ الاقمار ، مع كل جارية الف دينار . وأقسم لك من بيت المال كل سنة ما يكفيك وما يغنيك ؟

قال فلما سمع الاعرابي كلام معاوية ، شهق شهقةً ظن معاوية انه مات بها فقال له : ما بالك بشرّ بال وسوء حال ؟

فقال الاعرابي : استجرت بعدلك من جور ابن الحكم ، فبمن استجير من جورك ؟ وأنشد يقول :

لا تجعلني فداكَ الله من ملكٍ كالمستجير من الرمضاء بالنارِ
أردد سعاداً على حيران مكتئبٍ يمسي ويصبح في همٍّ وتذكارِ
اطلق وثاقي ولا تبخل عليَّ بها فإن فعلتَ فاني غير كفارِ

ثم قال : والله يا امير المؤمنين ، لو اعطيتني الخلافة ما اخذتها دون سعاد . ثم انشد :

ابى القلب الاحبّ سعدى وبُغّضت عليَّ نساء ما لهنّ ذنوبُ

فقال معاوية : انك مقرٌّ بانك طلقتها ، ومروان مقرٌّ بانه طلقها ، ونحن نخيرها . فان اختارت سواك تزوجناها ، وان اختارتك حولناها اليك

قال : افعل — فقال : ما تقولين يا سعاد ؟ ايهم احب اليك : امير المؤمنين في عزّه وشرفه وقصوره وسلطانه واموواله وما ابصرته عنده ؟ او

مروان بن الحكم في تعسفهِ وجوره ؟ او هذا الاعرابي في جوعه وفقره ..؟

فأنشدت تقول :

هـذا وان كان في جوعٍ واضرارِ أعزُّ عندي من قومي ومن جاري
وصاحبِ التاجِ اومروانَ عاملهِ وكلّ ذي درهم عنـدي ودينارِ

ثم قالت : والله يا امير المؤمنين ، ما انا بخازنتهِ لحادثات الزمان ، ولا لغدرات الايام ؛ ولكنّ له صحبةً قديمـة لا تنسى ، ومحبةً لا تبلى ؛ وانا احقُّ من يصبر معه في الضراء ، كما تنعمتُ في السراء

فتعجب معاوية من عقلها ومودتها ووفائها ، فدفع لها عشرة آلاف درهم ، ودفع مثلها للاعرابي ، فأخذها وانصرف

الانبري

تاريخ المهاجرة

« واسبابها »

كثر ذكرُ المهاجرة في هذه الايام وافاض الكتاب الكلام فيما يتهدَّد سوريا من الخراب من سفر ابنائها . فرأينا ان نورد هنا تاريخ هـذه المهاجرة الى اميركا مستندين في اقوالنا وتعليلاتنا الى كتاب جميل افندي حلوه الذي تكلمنا عنه في الجزء الفائت ص ٤٠٨ ووعدنا بالرجوع اليه :

كان ذكرُ العـالم الجديد ، ولا يزال ، مقروناً بالخيرات والبركات ، ولكم صوّر في ادمغة الاوربيين والشرقيين جبالاً من الذهب تناطح السحائب ، وابآراً تفيض من التبر سكائب ، حتى كادوا يظنون ان لا شيء يعوزهم هناك الا المجارف لتجميع ما فيها من مالٍ تليد وطارف . مع ان

الاحوال قد تغيرت في ايامنا . واميركا اليوم هي غير اميركا بالامس . ولكن تيار المهاجرة لا يزال يقذف اليها في كل سنة مئات الالوف من المهاجرين

وعهد مهاجرة السوريين قديم ، يرتقي الى اجدادهم الفينيقيين الذين رادوا البحار ، وحملوا تجارتهم الى اقصى الديار . أما مهاجرتهم الى اميركا فلم تبدأ الاَّ منذ نصف قرن تقريباً . وكان الباعث الاكبر عليها اختلال المجاري الاقتصادية في السلطنة العثمانية بفساد الحكومة الاستبدادية التي جرت على مذهب « فرِّقْ تَسُدْ » فتأصلت روح التعصب بين الجماعات والشيع والطوائف حتى كادت توقع البلاد في حرب اهلية دائمة ، وتضعضع الامن ، وسادت الفوضى ، ودرس العلم ، وثقلت المعيشة . وما بشر الناس بخيرات اميركا حتى هرع الكثيرون الى البواخر تحملهم الى شواطىء العالم الجديد حيث افلتوا من عُقل التقاليد وانفكوا من قيود الفقر والمظالم ، وتنفسوا الصعداء لان حالة الفلاَّح العثماني كانت من اتعس الحالات

وكان القرويون اول من شدّ الرحال الى اصقاع اميركا . وكان إثراؤهم السريع وحشدهم المال الكثير في الوقت القليل محرّضاً كبيراً على اقبال اخوانهم على اللحاق بهم الى ارض الحرية والاخاء والمساواة والغنى . وقد فتحت حكومات اميركا باب المهاجرة لدخول المهاجرين لانها كانت في حاجة الى تعمير البلاد واستثمار الاراضي . وفتحت ايضاً الحكومة العثمانية الباب وسيعاً لخروجهم لان معظمهم كان من النصارى ، واهمة انها بذلك وجهم تخلص من مشاكلها مع الدول الاوربية . على ان المسلم العثماني كان ومواطنه المسيحي سيّين في احتمال المظالم وتكبد المغارم . فلحق به الى

المهجر وهكذا لم تلبث المهاجرة التي بدأ بها النصارى ان شملت سائر الطوائف والملل من المسلمين والدروز والمتاولة فاقتعدوا غارب الرحيل الى العالم الجديد وكان تيارُها في بداية الامر موجهاً الى البرازيل وما قاربها قبل ان اتجه الى الولايات المتحدة

وصل المهاجرون الى بلاد سادت فيها الحرية ، واستتب الامن ، وتوفرت مصادر الارتزاق ، والكل فيها سواء ، برعاية النظام والقانون ، والاشتراك في ادارة شؤون البلاد . فنزلوا في ميدان الجهاد واقبلوا على العمل بنشاط واجتهاد . فاثروا شيئاً فشيئاً وتخلقوا باخلاق القوم الذين نزلوا بينهم وفتح الكثيرون منهم البيوت التجارية الكبيرة بعد ان كانت تجارتهم دائرة على « الكشة والجزدان » ومدّوا يدهم الى الصناعة والزراعة فاحرزوا نجاحاً يُذكر

ويقدَّر عددهم الآن بثلاثمائة الف في الولايات المتحدة وحدها وقد اسسوا ايضاً جوالي كثيرة في الجمهورية الفضية والبيرو والبرازيل والمكسيك وهايتي وسائر انحاء اميركا . واصبحت لهم بين القوم منزلة سامية ، وقد اجاد حافظ ابرهيم وابدع في وصف المهاجر السوري اذ قال :

يمضي ولا حليةٌ الا عزيمتُه ... وينثني وحلاه المجد والذهبُ
يكرُّ صرفُ الليالي عنهُ منقلباً ... وعزمه ليس يدري كيف ينقلبُ
بارض « كولمبَ » أبطال غطارفة ... أسدٌ جياعٌ اذا ما ووثبوا وثبوا
اسطولهم املٌ في البحر مرتحلٌ ... وجيشهم عملٌ في البرّ مغتربُ
ما عابهم انهم في الارض قد نثروا ... فالشهب منثورة مذ كانت الشهبُ

رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا الى المجرّةِ ركباً صاعداً ركبوا
سعوا الى الكسب محموداً وما فتئت أمُّ اللغات بذاك السعي تكتسبُ

وبالحقيقة فقد نشر المهاجرون لواء اللغة العربية في أقصى انحاء المعمور وأصبحت جرائدهم ومجلاتهم في اميركا تعدّ بالعشرات . وصحافتهم من أرقى الصحف العربية منها جرائد يومية تصدر بحجم أكبر جرائدنا اليومية وهي مشحونة بغرر المقالات ودرر الاشعار (وسنعود الى كل ذلك في ابحاثٍ آتية عن النهضة الادبية في اميركا)

* * *

هذا جلُّ ما يقال عن تاريخ المهاجرة واسبابها وحالة المهاجرين . وأمامنا الآن نقطتان : اولاً ، ايقاف تيار المهاجرة الذي كاد يفرغ البلاد من سكانها . وثانياً ، الاهتمام بالذين هاجروا وحفظ روابطهم بوطنهم . وكلا الامرين جدير بالبحث وامعان النظر

كتب الكثيرون من الادباء عن الطرق الواجب اتخاذها لاقفال باب المهاجرة . ولكن النقطة الجوهرية راجعة الى امرين ، مادي وادبي . اي تسهيل الحكومة للاهالي تأسيس المشروعات الاقتصادية والاعمال العمومية بل مباشرتها بنفسها ، وانشاء سبل المواصلات واستثمار ثروة البلاد حتى يجد الناس مرتزقاً . وضبط الامن واقامة العدل ونشر المساواة التامة دون محاباة . فان ذلك لا يمنع الناس فقط عن المهاجرة بل يعيد الى الاوطان العدد الاكبر من الذين نزحوا عنها . فينفعون بلادهم بما اكتسبوا في الخارج من الخبرة والمعارف والثروة

وقد أحسن صاحب الكتاب الذي أشرنا اليهِ في صدر الكلام اذ قال : « المهاجرة هي امتن ذريعة تتذرَّع بها الامة لدى اولي الاحكام ، تنفيذاً لبغيتها من الاصلاح والنظام وهي كمقاطعة البضائع بين الدول حرب سياسية اقتصادية لا بدّ لها أخيراً من الفوز والغلبة »

اما النقطة الثانيـة فهي الاهتمام بالمهـاجرين في مهجرهم وهم يبلغون مئات الالوف كما قدمنا وفيهم التاجر والمالي والطبيب والمحامي والصانع والمزارع والمؤلف والمخترع . فهم اذن قوة استعمارية عظيمة بالمعارف والعلوم والفنون والمال ونشر النفوذ ويحق لدولتهم ان تفاخر بهم ويجب عليها ان تحتفظ بهم فتحكم علائقها بهم ولو بعدت الديار وشط المزار ، وذلك بالالتفات اليهم وتعيين قناصل ووكلاء سياسيين ينظرون في احوالهم ويوثقون رابطتهم القومية وجامعتهم الوطنيـة ، ويذودون عن حقوقهم ومرافقهم . فلا يكونون عرضة للاهانة وطعمة لكل من تحدثه النفس بالتهجم عليهم . وليس كل ما قدمنا بالامر العسير على الحـكومة الراقية التي تفهم واجباتها نحو امتهـا

بين جدران السجون

وكادت الغزالة تتوارى وراء حجاب الافق فقفلنا معها عائدين من سراي الحـكومة اذ استوقفنا عند الباب الغربي طرق مطرقة رددت صدى ضرباتها المتتابعة جدران ذلك المكان

في الشبيبة ، مهما تكاملت صفاتها ، روح دفعتنا الى سؤال احد

الجنود الخفراء عن مصدر هذا الصوت ، فاجاب : من سجن المغاور . وكان هنالك قوة دافعة ايقظت فينا الميل الى الاطلاع على ما يجري في تلك القصور السفلية ؛ فسرنا الى حيث انبعث الصوت . وزادنا ميلاً اعتراض احد انفار الخفارة لنا بقوله بلهجة عسكرية مألوفة « يا سق » ، فانتظرنا

ولم يطل انتظارنا ، حتى فتح باب قصير ، خرج منه احد ضباط الجندرمة ، يصحبهُ كهل حامل على منكبه مطرقة ثقيلة . وفي يده بعض الادوات الحديدية ، وتلاهما عدد من أنفار الجندرمة لا يتجاوز العشرة

اقتربنا من الضابط وسألناه زيارة السجن فاجاب بنصح :

— سرحوا أبصاركم في الاماكن المبهجة ، وابتعدوا عن هذه الديار فهي مفعمة شقاء

ولكن لما أظهرت له ميلي الى درس احوال سكانه . اطرق هنيهة ، وأشار الى احد انفاره باستئذان المدير الاعلى

وكان النهار قد مال الى الزوال ، فعاد الرسول معلناً غياب المدير ففكر صاحبنا برهة وقال : هيوا بنا !

ولجنا الباب الذي كان لم يزل مفتوحاً ودخلنا الى نفق مظلم يبلغ طوله العشرة امتار تفصله عن مدخله شبكة خشبية ضخمة يشرف على فناء دار عاليـة والى جانبيه وحول جدران الدار ابواب صغيرة ملاصقه الحضيض يُنزل منها الى المغاور التي يقطنها المسجونون والتي اتخذ منها هذا المدفن اسمه الشريف

الى احـد جدران النفق كان فتى في ريعان الشباب مطرق الرأس كأنه في واد عميق من التفكر . والى يمينه قيد كبَّل يده برجله

انتبه الفتى من غفلته عنـد دخولنا فحول نظره الينا ثم الى الارض وخطا خطوة ليتوارى عن ابصارنا . ولكن خطوته هذه حركت السلسلة الرابطة رجله بيده . فأحدثت حركته صليلاً اهتزت له ابداننا . وذكر صاحبنا بحالته المحزنة . فاستند مرة ثانية الى الجدار واطرق مفكراً

لو اتيح لنظرنا ان يخترق ستر الظلام . لرأى حمرة صبغت وجنتيه . ودمعتين تجولان في عينيه . هاتان العينان اللتان لم تخشيا الاهوال نكصتا امام اعيننا . تانك الوجنتان اللتان شاهدتا الموت صافعاً بكفه محيا فريسته احمرتا خجلاً منا . تلك اليد التي هزَّت الخنجر بجراءة لارتكاب الجريمة ارتجفت عند موقفنا

للمرء مهما تقلب على بساط الجرائم وتمرَّغ في حمأة الفحشاء . ساعة نور وضياء . ساعة تختلي فيها الروح بمناجاة المادة في معزل عن الكائنات . ساعة ينظر بها الانسان الى اعماله فيلمنها . ويحكم بنفسه على نفسه

هاتوا لي طبيباً ماهراً ، دعوه يعالج هذه النفس الشقية ، لينزع عنها جراثيم الوباء ! ليضمد جراحها ويصب عليها بلسماً يبرد النار التي تأكلها ، وانا الضمين لكم بان تعود الى النفس حياتها . نعم . في الفتى نفس حية . كانت تصلح لان تكون من اكبر النفوس . لو سعى احد لتقويم اميالها . ولكن مسكينة هي . خانها حظها . فسقطت على معبر الطريق . وداستها الارجل فدنستها . دون ان تلقى من يلتقطها ويعتني بشأنها . ولادتها

كانت سبب تعاستها . فعاشت حقيرة . وقد دفعتها الحاجة الى الرذيلة . فهوت لضعفها . وما سقطتها الا نتيجة نظام سُن لحياتهـا . فشبت بين الجرائم . وستموت اثيمة . دون ان يكون الذنب كل الذنب عليها

هذه النفس خلقت لتكون عضواً عاملاً في المجتمع الانساني فرذلها حتى اصبحت عبئاً عليه . ثم بترها بدل معالجتها فانسلخت عنه وفي قلبها نار . وفي جوفها علقم مما حل بها

امام هذا المنظر الرهيب . تحركت فيَّ عاطفة الشفقة على هذا المسكين عدت الى نفسي . فوجدتها قاصرة عن اغاثته . فقلت لمن معي : كفانا ما شاهدنا فعودوا بنا

ولما تحولنا عنه تقدم منا الضابط الذي كان دليلنا في رحلتنا وقال :

— عندي من يستحق التفاتكم . وهو اللبناني قاتل ابن الخياط . وجارح الايطالي في السجن منذ اسبوعين . فان احببتم فسأدعوه اليكم . ثم نادى : يا ابا فارس ! هوذا من يريد ان يراك . فاصعد من سجنك

فاجابه صوت كأنه آت من وراء القبر قائلاً : « ها انا ذا » . وتلاه صليل سلاسل رددته اعماق تلك الحفرة . ثم وقع اقدام ثقيلة وظهر امامنا رجل في الاربعين من عمره . طويل القامة عريض الكتفين اسود اللحية كثيفها . وعيناه تقدحان في ظلام ذلك المكان شرراً وهو لابس سروالاً ورداءً من الجوخ الاسود وعلى رأسه طربوش لف حوله منديل جيبه . نظر الرجل الينا ثم حيانا وقال : ما تطلبون مني ؟

— زرنا هذا المكان ولما علمنا بوجودك قصدنا مشاهدتك في وحدتك

— اشكركم على هـذه المنة . . . هي المرة الاولى التي زارني بها احد مدة التسع السنين التي صرفتها في سجني

وسألناه عن حاله فقال متنهداً : ـــ في التعاسة والشقاء . بين القتلة والمجرمين كما ترون . لقد قاسيت الاهوال وذقت أمر الشدائد . والى جنبي سلسلتي الثقيـلة . لم يكن لي مؤنس في وحشتي سوى كتاب ارسله لي حضرة قنصل اميركا منـذ شهور لما بلغه امري . وعلم اني صرفت ثلاث سنين في اميركا

— ولماذا تركت اميركا واتيت الى هنا ؟

— انا لبناني الاصل ، ولدت من احدى الاسر المعروفة في قرية . . وقد قضيت سني حداثتي في المنزل الوالدي ثم ارسلني أبي الى المدرسة . حيث تلقيت العربية والافرنسية والانكليزية . ولمـا شببتُ سرت الى اميركا قصد المتجر . ولكن لم يكتب لي فيها التوفيق فعدت منها — ويا ليتني لم اعد — بعد ثلاث سنين الى مسقط رأسي . ومنهـا الى هذه المدينة حيث لاقيت ما لاقيت

— ما هي قرابتك بالكاتب اللبناني المعروف . . . ؟

— هو ابن عم ابي

— انت كريم الاصل . حسن التربية . فما الذي دفعك الى ارتكاب الجريمـة ؟

— فتش عن المرأة . قال ذلك بالافرنسية وسكت . فنظرت اليـه واشارات الاسف تلوح على وجهه وسكتُّ ايضاً . خواطر مظلمة مرّت

على مخيلتي . وامور شتى تواردت على بالي . الكلمات التي قالها بطل اوستراليتز وفاغرام سجين القديسة هيلانة قطعت مسافة قرن من الزمان . وطرقت مسمعي من فم سجين المغاور احد ضحايا المرأة

تلك المخلوقة اللطيفة موضوع خيالي . من تسجد امامها روحي وتحرق على مذبحها بخور آماني وآمالي . تلك التي اعترفت ان سعادة المرء منهـا . مثلت امامي كشبح شقاء الجنس البشري وسبب تعاسته . شعرت بسلسلة آثام وجرائم . اولها اغواء حواء . وآخرها غواية المسكين المنتصب امامي .

الرجل . وما صار اليه من المدنية في القرن العشرين . هـذا المخلوق الذي يزاحم باعمـاله الالوهية . ويدرس سر الخلود . هذا الكائن مخضع الارواح والعامل ما وراء الوجود . تصورته اسير جسم نحيف وقدٍّ نحيل ، بل العوبة بين القلب والعين . بل فريسة نظرة وميل

ولم يكن الا لمحة بصر . حتى مرت امام ناظري صور جديدة

امام النجاح الباهر في التقـدم والعمران . وعلى اثر الانقلاب العظيم في البشرية والاكوان تذكرت كم لتلك اليد اللطيفة من التأثير في العمل وكم شدَّدت من عزائم واحيت من أمل ؟ ، كم دفعت الى الامام . مسهلة الامور . وكم رفعت من خافض محركةً فيه الشعور ؟ تذكرت — وما احلى ذكرى لحاظ العيون السود . وسحر ورد الخدود . ولواعج قلب يخفق تحت رمان النهود — وقلت في نفسي : لله أنْ في تربية المرأة هـذا السرّ المكنون والكنز المدفون

ثم انتبهت الى الواقف امامي وقلت : هذا ما كان من الجريمة الاولى

فما الذي دفعك الى الثانية . وكيف اتيتها وانت على ما أنت ؟

فاجاب وقد قدحت عيناه ناراً : رجل اهان شرفي فانتقمت منه

عدت خطوة الى الورا، ونظرت الى هذا الرجل العجيب فوجدت سيماء الابهة والعظمة تلوح على محياه كأنه اتى امراً تحمد عقباه . تأملته وقد دفعه نزقه وطيشه الى عمل فظيع . فقتل عمداً شاباً في ربيع العمر توهم انه حطّ من كرامته ثم استأنف قائلاً :

— حكم عليّ بالاعدام لارتكابي الجريمة الاولى . وقد استبدلت محكمة التمييز هذا الحكم بالسجن المؤبد، على ان الدستور خول اليّ عفواً خفض مدة سجني الى الخمس عشرة سنة . صرفت منها تسعاً في السجن . وبقي منها ست سأقضيها وانطلق من هذه البلاد الى حيث استطيع الانتقام من الحكومة والانسانية بنشر ما لاقيت في سجني من الحيف والظلم

ما أشقى ما فطر عليه البشر ! جريمتان تهتز لهما الابدان . ارتكبهما هذا الشقي بخلق هامد . ودم بارد . دون ان يحرك قلبه الجلمودي عامل ندامة او شفقة . وهو يعلل النفس بالخلاص . وينتظر ساعة يستطيع بها الانتقام من العدل والقانون . فما اتعس قلب الانسان ؟ رحمةً طلبت في قلبي لهذا التعس لا عدلاً . وسلاماً تمنيت له لا انتقاماً . فما العدل والانتقام مما يغير فطرة غرستها فيه الطبيعة ورضي بها الاه . وعدنا باعطائه بعض ما يخفف به من تعاسته . فعمدت الى قول الريحاني وقصدت ان يشترك القلب واللسان مع اليمين في الاحسان . فدنوت منه وقلت :

— اخي ! ليس ما لاقيته من الحكومة الا قصاصاً عادلاً عما جنته

يداك . فتذكر ان جهالتك افقدت رجلاً مثلك حقه في الحيـاة وسلبته نصيبه من الدنيا . جريمتك عظيمة فاعمل على اصلاح مستقبلك ليكون كفارة عما جنيت

ثم جمعنا شيئاً من الدراهم واردنا ان نتقده اياها . فأبى وقال : لا حاجة بي الى ذلك . ولا ارغب الا في احسان القلب الى القلب فعدوني بالعودة اليَّ من حين الى حين ليشرق نور الامل في جو نفسي ويقشع عن صدري غياهب اليأس والقنوط

فوعدنا وخرجنا وقد تمثل امام اعيننا تقصير الانسان في واجبه نحو اخوانه . فكم من النفوس تذهب ضحية الجهل لانها لم تجد من يهذّب اخلاقها ويقوّم طباعها وهي انما تنتقم من الانسانية لان الانسانية اهملتها

حلب يوسف توتل

ازهار واشواك

بين « الرصافة » والجسر

أتردد كثيراً الى مكتب ادارة « الزهور » لاطالع الصحف والمجلات العربية الواردة من كل الانحاء . فان لي شغفاً في استطلاع انباء ادباء العرب

وقد تصفحت في زورتي الاخيرة جرائد بغداد ، فرأيتها صاخبة ناقمة ، وفيها الردود الطويلة العريضة على مقالة كتبها اديب بغدادي في « الزهور » عن النهضة الادبية في العراق . قال ذاك الكاتب ان الصحف